

## مشاهدات على ضفاف البحر الميت - الجزء الثاني

مجلة التراث والمجتمع العدد - 48 أولريخ جاسبر سينزن - ترجمة د. حمدان طه - 2008/12/20م - 11:30 ص

مشاهدات على ضفاف البحر الميت - الجزء الثاني



### مقدمة

في الساعة الثانية عشرة تابعنا المسير، وأصبح الطريق الضيق على الشاطئ مرة أخرى شديد الوعورة. وبعد مضي ساعة بدأ الشاطئ في هذه الأثناء في الانفراج نحو البحر مشكلاً سهلاً ضيقاً، يتراوح اتساعه ما بين عشرة إلى خمس عشرة دقيقة. وفي بدايته كان محصوصباً وعديم الخصوبة. وبثبت وجود أرنب قفز أماناً أن المنطقة ليست ميتة تماماً. وقد وجدت هنا شجرة الست المستحية (ميموزا) بحجم معتبر، وبعضها من النوع الذي يطلق عليه العرب اسم زيال وبعضها الآخر اسم طلح. وجذعها قصير ولكن هامتها منتشرة بما فيه الكفاية وهي مستوية من الأعلى.

في هذا الهدوء الذي لا يعكر صفوه شيء، ما إن قطعنا تقريبا نهاية السهل الصغير المنزوي، حتى أصيب مرافقي بحالة من الذعر المفاجئ مرة واحدة، وأطلقوا سيقانهم للريح مرتدين بسرعة إلى الوراء. ولوح لي بطرس صائحا بأن أتبعه. ورغم أنني لم أر سببا محددا لهذا التصرف الغريب، فقد ظننت بالطبع بأننا قد وقعنا في ورطة خطيرة. ولويت زمام بغلي دون لأي وقدته بكل سرعته. لكن لم تجد للكلمات والضربات نفعاً كبيراً معه. فلم يدرك هذا الحيوان المسكين بأنه من الملح العودة القهقري بسرعة تفوق سرعته في طريق المجيء. وبعد الركض لبضع دقائق سمعت عن بعد صيحة وحشية خلفي، ما لبثت أن اقتربت مني. وهنا تيقنت بأننا وقعنا في قبضة قطاع الطرق.

ولأنني اعتقدت بأنني يمكن أن أركض أسرع من هذا....

## مشاهدات على ضفاف البحر الميت (2-2)

أولريخ جاسير سيتزن ترجمة: حمدان طه\*

في الساعة الثانية عشرة تابعنا المسير، وأصبح الطريق الضيق على الشاطئ مرة أخرى شديد الوعورة. وبعد مضي ساعة بدأ الشاطئ في هذه الأثناء في الانفراج نحو البحر مشكلاً سهلاً ضيقاً، يتراوح اتساعه ما بين عشرة إلى خمس عشرة دقيقة. وفي بدايته كان محصوصباً وعديم الخصوبة. ويثبت وجود أرنب قفز أمامنا أن المنطقة ليست ميتة تماماً. وقد وجدت هنا شجرة الست المستحية (ميموزا) بحجم معتبر، وبعضها من النوع الذي يطلق عليه العرب اسم زيال وبعضها الآخر اسم طلع. وجذعها قصير ولكن هامتها منتشرة بما فيه الكفاية وهي مستوية من الأعلى.

في هذا الهدوء الذي لا يعكر صفوه شيء، ما إن قطعنا تقريباً نهاية السهل الصغير المنزوي، حتى أصيب مرافقي بحالة من الذعر المفاجئ مرة واحدة، وأطلقوا سيقانهم للريح مرتدين بسرعة إلى الوراء. ولوح لي بطرس صائحا بأن أتبعه. ورغم أنني لم أر سبباً محدداً لهذا التصرف الغريب، فقد ظننت بالطبع بأننا قد وقعنا في ورطة خطيرة. ولويت زمام بعلي دون لأي وقدته بكل سرعته. لكن لم تجد اللكمات والضربات نفعاً كبيراً معه. فلم يدرك هذا الحيوان المسكين بأنه من الملح العودة القهقري بسرعة تفوق سرعته في طريق المجيء. وبعد الركض لبضع دقائق سمعت عن بعد صيحة وحشية خلفي، ما لبثت أن اقتربت مني. وهنا تيقنت بأننا وقعنا في قبضة قطاع الطرق.

ولأنني اعتقدت بأنني يمكن أن أركض أسرع من هذا الحيوان المزاجي، الذي سيكون الأمر بالنسبة له سيبان سواء تبعنا أو تبع قطاع الطرق، لأنه سيظل مستعبداً على أي حال، فقد قفزت عن ظهره بسرعة وحاولت اللحاق بأتباعي. ولكن ركضي كان موزوناً بصورة سيئة، لأنه

\* باحث في الآثار.

ولسوء الحظ كانت جيوبي محشوة بالحجارة والنباتات، التي صارت، بالإضافة إلى فروتي وجيوب بنطلون سروالي، عائقا لركضي، إلى أن أدركت بسرعة بأن جهودي ميئوس منها. وعندما أصبح صوت ملاحقي الذي أمرني بالتوقف قريبا جدا مني، فكرت بأنه سيتبع أمره بطلقة بندقية. ولهذا قررت التوقف والاستسلام إلى قدرتي. وفي هذه اللحظة شعرت بأن يدا بشرية تتفض علي. وعندما استدرت تبين لي وجه رجل أسود. كان مسلحا ببندقية وعصا. وأمرني بنظرات وحشية، وهو يلهث متقطع الأنفاس بأن أخلع ملابسي، وبكلمات أخرى بأن ألقى ملابسي. وبما أنني بدوت له بطيئا فقد ساعدني بسرعة حتى أنه مزق ملابسي أكثر مما خلعتها. وبينما كنت منشغلا بذلك جاء أناس آخرون، بعضهم أسود البشرة وبعضهم أصفر ضارب إلى البني، مسرعين، والتفوا حولي بعضهم مسلحين بالهراوات والعصي المرفوعة بهيئة التهديد. في هذه الأثناء دسوا أيديهم في جيوبي باحثين عبثا عن نقودي التي تركتها في بيت لحم، وأخذوا ساعتني، ومزقوا عمامتي..الخ. ولكن معظمهم لحق برفاقي الذين سعوا للحصول على مخبأ في الجبال. وحين بت على قناعة بأنهم لا يريدون أكثر من متاعي، جلست هادئا بينهم، مراقبا طريقة تعاملهم. وقد وضعوا بحرص دفتر ملاحظاتي وأوراقي الأخرى إضافة إلى مجموعتي من الحجارة والنباتات على كومة من الحجارة، وقال البعض للآخر "دعوا هذه له".

وفي حين كان هؤلاء منشغلين بي، فلم أتعرض منهم لأي سوء معاملة، لأنني لم أبدأ مقاومة، صاح صوت فجأة "توقفوا توقفوا بينهم واحد معرفة وصديق لنا". وسرعان ما أمسك فريق قطاع الطريق المطارد بجماعتي في وقت قصير، وتبين لنا بأن مرافقي الرشيدي يعرف عددا منهم. وضعتنا هذه المعرفة تحت الحماية وجعلتنا أصدقاء مثله تماما. وتجمع الكل على كومة من الحجارة حوالي. وكانوا واحدا وسبعين شخصا. وسألوني إذا كنت قد فقدت أيًا من أغراضني. ورغم أن الأغراض المسروقة وقعت في يد أكثر من شخص، وأنني لم أقدم أية بينات حولها، ورغم أن

كل واحد منهم كان راغبا في الاحتفاظ بالقطعة المسلوقة. فقد تقدموا إلي واحدا إثر الآخر وسلموني الأغراض المسروقة، بنظرة ضاحكة كما ذكرت. ومع ذكر كل قطعة نادى قائدهم بصوت عال "يا جماعة يا أصدقاء اذكروا النبي ومن عنده هذه أو تلك (وكان يذكر اسم الغرض) فليعده إليه"، وبهذه الطريقة استعدت جميع أغراضي، والتي لم يضع حتى أصغرها.

وقد جلسنا لبعض الوقت معا، وتندروا ضاحكين على مغامرتنا. وكان أمرا رائعا مع هؤلاء الناس. وقد أكدوا بقلب مفتوح، أنه لو لم يكن بيننا معارف لهم لكنا قد سلبنا جميعا. وكان هؤلاء اللصوص من عرب حاتم، الذين يقيمون في المناطق الشرقية والشمالية لدير مار سابا للروم الأرثوذكس وفي مناطق الغور حول أريحا، وتحالف معهم بعض بدو شرق الأردن. وكانوا قبل عدة أيام في مهمة في منطقة تقع إلى الجنوب من عين جدي، عند عرب الخريشه، الذين يقيمون في الجبال، ولا تزيد مضاربهم عن سبعة خيام، أخذوا للثأر لأنهم متهمون بسرقة عدد من الأبقار منهم. وكان قد سبق لهم في إحدى المناسبات أن قاموا بقتل عدد من أفراد هذه القبيلة المعادية.

وتزودوا في مهمتهم هذه بقليل من الطحين، ليصنعوا منها خبزهم، الذي يشكل غذاءهم الوحيد. وكانوا جميعا يرتدون قمصانا خشنة من القطن الأبيض، وفوقها غالبا عباءات قديمة ممزقة، يشدونها بحزام جلدي على الوسط، وعليه يربطون خنجرهم وعلبة البارود. وهم لا يرتدون البنطلونات. وكانت الأرجل والأقدام عارية عند معظمهم، والقليل منهم ينتعلون الأحذية. وكان نصفهم مسلحا بالبواريذ ذات الفتائل.

كان اسم قائدهم أحمد بن ناصر، وهو رجل قوي البنية وفصيح اللسان في أواسط العمر، ويتميز بلباقته. وكان أيضاً مسلحا بهراوة قصيرة، ويعرف كيف يصيب هدفه عن بعد. ويرتدي فوق عباءته فروة أيضاً. وكان بين جماعته كثير من السود، الذين يشكلون نصف قبيلة حاتم. ولأنني أثناء المشاهد الأولى لأسري قد استسلمت لشخص أسود، فقد اعتقدت بأنني

محاط من قبل مجموعة من البدائيين في وسط أفريقيا. ولاحظت القليل من الأشخاص ذوي البنية القوية بينهم. وكان معظمهم نحيلًا وذا هيئة لا تشي بالقوة الجسدية، رغم أن مسيرتهم المنهكة قد أسهمت في ذلك. ونصيبهم من الخبز يكون في هذه الحال قليلاً جداً، لهذا فهم جياح على الدوام. وعند الوداع كان لا بد من إعطائهم بعضاً من الطحين والتبغ، وهم يتعلقون به بشدة مثلهم مثل معظم البدو. وتمنوا لنا سفراً ميموناً، وواصلوا سيرهم باتجاه الجنوب.

وبمناسبة هذه المغامرة فإنني أستميح العذر لنفسي بالتعليق على قطاع الطرق المحليين والأوروبيين، والذي يمكن أن يكون الدليل على أن الكمال له نقائصه. إن العناية غير العادية التي يوليها البوليس الأوروبي للأمن العام، والعقوبة القاسية التي لا يمكن تفاديها التي تهدد السارق، إذا ما اكتشف أمره، تجعل من هؤلاء الناس أكثر خطراً بكثير من هنا. ويرى قاطع الطريق الأوروبي نفسه في كثير من الأحوال مضطراً للقسوة، بما في ذلك القتل، لحماية نفسه، وتفادي الوشاية به. وكقاعدة أيضاً يكون المسلوب غير مسلح، ولا يكون قادراً على الدفاع عن نفسه. أما قاطع الطريق المحلي هنا فعلى العكس من ذلك. وهذا يصح على البدوي بدون استثناء تقريباً، فإنه لا يضطر إلى مثل هذه الأساليب المروعة، إذ أنه لا يتخوف من أية عقوبة، كما أن هذا لا يسبب له بين معارفه أي حرج، لا بل أن الفخار ينتظر السارق. ولكن في الحالة التي تبدي فيها الضحية مقاومة عنيفة، فتصير حياة المهاجم نفسه محل خطر، فإن قاطع الطريق يمكن أن يقدم في سورة من الغضب على هذه الفعلة، أما غير ذلك فلا. وقد تلقى بطرس في هذا السياق درسا صغيراً، إذ حاول في أثناء أسره إبداء المقاومة، واستل خنجره، فانهال شاب أسود بعضى غليظة على كتفه وذراعه، فظل يتألم لعدة أيام.

هذه التجربة التي جرت مع البدو تقدم الدرس لكل مسافر، بأن لا يبدي أية مقاومة في حال هجوم من هذا القبيل، لأن الخسارة التي سيجنيها

لا يمكن مقارنتها بخسارته لحياته. وحيث يكون هناك مجال للسفر في الأماكن التي يحذر فيها من هجمات البدو، على المرء أن يحرص دائماً على أن لا يحمل معه أغراضاً تكون خسارتها بالنسبة له لا تعوض، أو تكون مضاعفاتها مؤثرة عليه. إن البدوي هو لص إنساني حقاً، وإذا لم تقاومه ستكون في أمان دائماً. كذلك لا بد من التزود بالكثير من قطع الثياب، لضرورة الغطاء والدفء. عدا ذلك فإن القضية الأهم بالنسبة للرحالة العلمي هي الحفاظ على مذكراته اليومية، وأوراقه الأخرى دون ضرر. وهكذا يختلف الموقف تماماً عن موقف العربي تجاه أعدائه. فهو يظهر، في الغالب، في مثل هذه الحالات عنيفاً، لا يبيح ولا يذر.

أعاقتنا هذه المغامرة مقدار ساعة ونصف. ولأننا اقتربنا الآن إلى نقطة على الشاطئ لا يوجد فيها ممر فقد اضطررنا إلى تسلق تلة صغيرة، وجدنا على حواشيتها الجافة ورده أريحا مرة أخرى. في الساعة الرابعة إلا ربعا وصلنا مرة أخرى إلى شاطئ البحر، حيث يوجد نبع صغير في منطقة الشاطئ، ويطلق عليه عين الترابية. وكان الشاطئ المنبسط للبحر مخضراً بالأشجار والشجيرات والقصب، بفضل هذا النبع. وما زالت الجبال الصخرية هنا وعرة وموحشة كجبال عين جدي.

في الساعة الخامسة وعشر دقائق، وصلنا إلى نبع آخر يسمى عين الغوير، ويبعد هو الآخر مسافة قصيرة عن الشاطئ. وكان عرب حاتم قد أمضوا ليلتهم الفائتة هنا، فقد وجدنا آثار مواقع نيرانهم في بضعة مواقع. واقتيد بغلي في طريق جبلي وعرة، في حين سرت بصحبة اثنين من مرافقي مشياً على طول الممر. وكانت النباتات حول النبع كثيفة حتى أننا شققنا طريقنا بين الشجيرات والقصب بصعوبة بالغة، رغم أن عرب حاتم كانوا قد شقوا لهم طريقاً بين القصب المقصوص. وعرجنا على مغارة هنا لقضاء ليلتنا، ذلك أن مخبأً موثقاً وآمناً لقطاع الطرق غير وارد هنا. إن كتاب قصص قطاع الطرق، سيجدون في هذا مادة غنية، لرسم صور مروعة تزين حكاياتهم. وسرعان ما أشعلت النار، وتم إعداد القهوة، ومع الخبز الذي سبق إعداده تناولنا عشاءنا الاعتيادي مع الزيت والدبس.

وكان الأمر بالنسبة لي مسلياً ملاحظة سلوك مرافقي الأربعة بعد المغامرة التي مررنا بها. فالجميع كان قد أصابهم الهلع، وكان بادياً عليهم الضيق من خوفهم الذي كشفه هروبهم الجبان، وتركبي وحيداً. وأبدى بطرس والرشيدي حساسية أقل لخوفهم من كلا التعمرين خليل ومحمد. وكان خليل يمزح ويتحدث كالثمل. أما محمد فقد بدا صامتاً وخجلاً، لأنه أبدى خوفاً أكبر، وهذا ما استفاض في الحديث عنه الآخرون. في هذه الأثناء حاول محمد أن يجد لنفسه عملاً يشغله بعيداً عنهم، فسرح بالبغل وابتعد به. ولم يتحسر بطرس سوى على جرة النبيذ التي احتفظ بها لنفسه طوال الطريق، والتي انكسرت أثناء هجوم عرب حاتم. وكان هذا الأمر بالنسبة لنا سيان، فأنا لا أشرب الخمر، كما أن مرافقي البدو لا يشربونه لأسباب دينية. وبالإجمال كنا في حالة من الحبور، كما لو أننا عدنا للتو من حفلة إلى البيت.

بعد وصولنا إلى المغارة فوراً بدأ المطر في الهطول. ومضت ساعتان في هذا المكان، فيما زال رجالي يتحادثون عن مغامرتنا. إلا أن تنبهاً فجأة على صوت جلبة خفيف في الدغل. وبعد بضعة دقائق سمعنا صوت مناداة على اسم أحد مرافقي العرب. وكان هذا صوت الشيخ أحمد، ولاحظنا الآن بأنهم لصوصنا، الذين اضطروا للعودة بسبب استمرار تساقط المطر.

كانت هذه الزيارة المفاجئة غير سارة لنا على أكثر من وجه. وبعد لحظة صارت المغارة تعج بأناس مبللين يرتعدون من البرد، ويطلقون أنات وحشية. جلس الشيخ أحمد بجانبني، وأولاني اهتماماً كبيراً. وسرعان ما توهجت النار، واستدار العرب حولها تاركين اللهب يلفح تحت ثيابهم، لتجفيف أنفسهم، وكانت آثار بعض الحروق بادية على ثيابهم. وما أن شعروا ببعض الدفء حتى أتى دور مجموعة أخرى. ولم يسبق لي في حياتي أن أمضيت ليلة مثل هذه مع جماعة طبيعية. وبدأت الطبيعة كلها متوحدة مع هذا المشهد لتكمل هذه اللوحة الطبيعية: كهف صخري في منعزل في العراء، على بعد عدة أميال من أقرب تجمع بشري ثابت، وعلى

أقدام جرف صخري رهيب، بما يستعصي على النسيان، وهو يعج بالبشر، الذين تعرفنا عليهم للتوّ كقطاع طرق، وهم يشبهون الآن في عاداتهم كائنات طبيعية، يا لها من لوحة!.

ولم يكن هذا كل الأمر، فقد تسبب المطر الغزير في ارتفاع مجرى سيل الوادي، وأدى قصف الرعد فجأة إلى انهيار كتل الصخور الملاصقة لمغارتنا. وكان نور البرق يضيء عتمة الليل، يعقبه صوت قصف الرعد الذي يغور عند هذه السدود الصخرية. إن صوت الرعد في هذا المشهد الطبيعي الجليل يجلب في أوروبا قدراً من الرهبة، أما بالنسبة لهؤلاء البدو فكل قصة رعد كانت تبعث على الضحك الجنوني.

وقد تميز أحمد بسلوكه عن بقية رفاقه تماماً، وأبدي نحوي مزيداً من الاهتمام فكلما اقترب شخص من جماعته مني تماماً، وأحس بأنه بدأ يضايقتي، فقد كان يبعده.

إلى جانب طبعه اللطيف، فقد كان هناك مصلحة خاصة دفعته لذلك. فهو يعرف بأنني مسيحي، وقد توقع، أغلب الظن، أن أقدم بعد عودتي إلى الدير في القدس شهادة لصالحه. وكان هذا بالنسبة له فرصة لا بأس بها، لأن عائلته تتقاضى دخلاً معتبراً يدفعها الدير سنوياً لغرض حماية أمن الحجاج الذين يزورون أريحا ونهر الأردن في مواكب كبيرة من أجل العماد أو الاستحمام. وأبوه كبير شيوخ قبيلته يقف على أمن الحجاج مع العديد من أفراد عائلته بالخيال والسلاح في حدود منطقته.

وتوضح بعض الأمثلة طريقة تفكير أحمد بجلاء. فقد أعد أحد رجاله كعكة في الرمضاء. وجلس أمام أحمد، الذي تلقى منا قطعة من الخبز قم بالتحضير" قال له "لنا كل الخبز، انظر فقد حضرت الخبز لأجلك"، وهنا وضع لقمة من الخبز في فمه. وبعد قليل أمر واحداً بجلب ماء للشرب، والذي صدع للأمر. وأمر آخر بجلب حطب جاف لتغذية النار، وحين تمنع الأخير عن ذلك بسبب المطر الغزير في الخارج، ذهب بنفسه هناك، وفي لمح البصر جلب كمية كبيرة من الحطب. بعد ذلك حالاً جاء صوت

يستغيث بأن أحد رجاله في خطر، وكان على الجانب الآخر، وذلك أثناء عبوره السيل الجارف للوادي. ألقى أحمد فوراً عباءته وقميصه وهب عارياً تماماً لنجدته.

تدل هذه الأمثلة الفردية كيف يجهد أحمد نفسه لكسب ولاء جماعته، وكم هو رباط الطاعة مفتوح بين الشيخ والإنسان العربي العادي. فقد جلس أحمد بساقين مكشوفتين وظهر عار مثله مثل البقية، وقميصه بالكاد يستر عورته. وبعد فترة أشعل جزء من المجموعة النار في كهف آخر مجاور لكهفنا، ويتشكل هذا الكهف من عدة كتل صخرية. تنفسنا الصعداء، فقد كنت محشورا في مكان صغير في زاوية الكهف، ولم تغمض عيناى للنوم سوى فترة قصيرة طوال الليل.

في اليوم التالي تركنا كهف قطاع الطرق في الساعة السادسة صباحا برفقة أحمد، الذي وعدته ببعض النقود، إذا ما رافقنا حتى أريحا. وعلى طول الشاطئ تنتصب أشجار الصفصاف الكبيرة والصغيرة والقصب بكثرة لمسافة أخرى. وتقع على مرتفع من الأرض، إلى حد أن البحر حين يصل إلى مستوى ارتفاعه الأقصى لا يصلها.

يمتد السهل الصغير على الشاطئ المنبسط بشكل طولي، وهو طيني تارة، ومليء بالحجارة تارة أخرى. صارت الأرض الطينية رخوة بسبب المطر، مما جعل إمكانية مواصلة التقدم صعبة بعض الشيء. وتتميز هذه الأرض الطينية بالملوحة، ولا تنمو فيها النباتات، كما أكد أحمد. ولكن جزءاً من هذه الأرض تكون في فصل الربيع مكسوة بمختلف أنواع النباتات.

وقد وجدنا هنا في عرض السهل موقداً صغيراً مبنياً من الحجارة الغشيمة. ويستعمل البدو مثل هذه المواقف من أجل شي الجديان البرية، وذلك عندما يفلحون في الدفع بواحد منها للسقوط من مرتفعات الجبال الصخرية القريبة.

في الساعة السابعة إلا ربعاً مررنا بمحاذاة كهف كبير إلى اليسار منا. وكان في منتصف علو الصخور الشاهقة، يقود إليه ممر ضيق صعوداً إلى

الأعلى. ويمكن أن يكون مخبأ لا مثيل له لقطاع الطرق، الذين يمكن لهم هنا أن يدافعوا عن أنفسهم بسهولة ضد عدد كبير من المهاجمين. ولما كان مرافقي الرشيد قد زار غور الصافي في النهاية الجنوبية للبحر الميت عدة مرات، فقد استعلمت منه عن تل كبير ما بين جبل الملح ومصب البحر، وعرفت الكثير منه. وهذا الجبل هو تل المزوغل، وهو ليس ضريحاً تذكاريًا لمسلم أو مسيحي، ولا يمثل مكانة خاصة بالنسبة لهم أو للبدو. ويعني تل المزوغل تل المخادع أو الكاذب أو التل المزيف الأفق. إن اسم هذا التل الاصطناعي وموقعه، الذي سبق وأن رأيته أثناء سفري من الكرك إلى القدس قد أوحى لي أول الأمر، أنه ربما يكون الموقع الذي يطلق عليه الناس أعمدة الملح. ولكن الاستطلاعات اللاحقة التي قمت بها لم تقطع الشك باليقين حول هذا الاعتقاد.

في الساعة السابعة والنصف وصلنا وادي الراهب، المعروف باسمه القديم قدرون، ولا يجري فيه السيل إلا في مواسم الأمطار الطويلة. وله مجرى ضيق وعميق، يشق الجبال الصخرية الشاهقة التي ترتفع على كلا جانبيه. وعندما ينزل المطر يندفع سيل جارف إلى السهل الصغير، حيث يتشكل مجرى عريض نسبيًا، تسيل فيه القليل من مياه الأمطار، رغم أن مطر البارحة هطل بكثافة.

بعد نصف ساعة تقريباً وصلنا إلى تله اصطناعية صغيرة مكونة من الحجارة العشيمة، أطلق عليها أحمد اسم اللتون، وأكد بأنها أطلال مدينة قديمة، ولم أجد سبباً واحداً مقنعاً لهذا الادعاء. فربما كان هنا برج أو حصن أو دير أو مثله في الماضي. أما الآن، والى حد كبير، فإن هذا المبنى غير ذي شأن. وقد بحثت هنا حسب إرشادات بوشنغ الجغرافية عن آثار المباني القديمة، التي وجدها الرحالة الأوائل هنا، ولم يفدني أحمد بأي شيء محدد، وعدا تأكيده حول اللتون فلم نعثر على أطلال في هذه المنطقة. وروى بطرس بأنه قام في السنوات الماضية مع عشرين مسلحاً من بيت لحم والبدو بمرافقة الرحالة البريطاني السيد جون جوردان لهذه المنطقة، وأنهم رأوا في الماضي مرتفعاً بارزاً على بعد معين من شاطئ البحر. وسبح

السيد جوردان هناك، وقام بالغطس في هذا المكان وانتشل بضع حجارة من الأعماق أخذها معه. ولأن بطرس اختلق لي الكثير من القصص، وبما أنني لم أجد أية آثار تدل على ذلك المرتفع، رغم أن علو مستوى سطح البحر لم يكن كبيراً، لذلك وجدت نفسي مضطراً أن أشك في أقواله.

وعلى مقربة من اللتون، توجد مغارة صغيرة عند أقدم الجرف الصخري، عندها تناولنا فطورنا المعتاد المكون من الخبز الطازج.

كانت الساعة التاسعة عندما غادرنا اللتون، وأظهر مرافقي الرشيدى تبرماً شديداً في مواصلة السير معنا، لأنه يعرف ربما صعوبة الطريق، التي تنتظرنا. على أي حال، ورغم أن جماعتي أظهروا اغتباطاً ليس في محله على ذلك. وقد ودعنا هنا وعاد أدراجه إلى مضاربه.

تلاشى السهل الذي سرنا فيه عند اللتون. وانتهى هنا بجبل صخري شاهق، وهو يرتفع مباشرة عند حافة شاطئ البحر. وكان أحمد الذي يعرف المنطقة قد أكد بأنه لا يوجد ممر عند أقدم الجبل، لذا توجب علينا الصعود إلى قمة الجبل.

وكان من دواعي ضيقي الإضافي التواء كاحلي في اليوم السابق في دغل عين الغوير، ولم أتمكن من المشي في هذا الصباح. لكن، كان علي أن أستجيب للضرورة الملحة وأتسلق الجبل، ذلك أنه حتى بعلي غير المحمل كان يتقدم بصعوبة بالغة، بعيون ملؤها الشعور بالخطر من كسر أرجله. ولهذا الطريق الصاعد لم نتبين أي أثر، وتوجب علينا تسلق الصخور العارية، والقفز فوق القلاع. وتتكون هذه الصخور من حجر طباشيري رمادي اللون، تنتشر فيه شقوق كثيرة، ربما تكون ناتجة عن البترول الأرضي، وربما أيضاً عن مواد معدنية أخرى، وحال لونها إلى السواد. وعلى سطح الجبل الكثير من أكوام الحجارة، سطحها ذو لون أزرق ضارب للحمرة. وكان قد لاح لي في البداية كالدّم على سبيل الخطأ. وقد أضفى عليه المطر لوناً لامعاً. ومن قمة هذا الجبل تمتعت بمشاهدة دائرة واسعة للبحر، وتيقنت بأنه لا توجد جزيرة في هذه المنطقة. ولكن، عند أقدم الجبل فقط، لاحظت شرائط صغيرة ومضيئاً صغيراً يمتد داخل البحر، بدا لي ككتل الصخور والقلاع، ترتفع قليلاً عن مستوى سطح البحر.

وعلى الجهة الشرقية للشاطيء، قبالتنا تقريبا، تنتصب الجبال ومصب نهر الزرقاء-ماعين أو وادي الزرقا، الذي ينبع بالقرب من أطلال ماعين (بعل معون) في البلقاء.

أكد لي جماعتي الآن أنهم يرون بوضوح ممراً ملاصقا للبحر عند أقدم الجبل. انتابنا شعور بالخجل، كيف قطعنا جبلا شاهقا، على مضض، كالمجانين بدلاً من مواصلة السير في الطريق الأكثر يسرا. اعتذر أحمد لأنه لم يكن يعرف هذا الطريق، الذي يبدو أنه يكون غير مرئي في فصول معينة من السنة، عندما يرتفع مستوى سطح البحر.

أصيب جماعتي بالهلع بعد ظهور غير متوقع لبدوي، بدا في الأفق على قمة تله بعيدة. وتخوفوا من هجوم مباغت. أسرع أحمد والتعمريون الآخرون بالنزول عن قمة الجبل، وكان البغل رغم نباهته أقل تدريبا على الففز من البشر وبطيئا في سيره. ولم نستطع أن نترك البغل وحيدا، لذا بقينا أنا وبطرس بجانبه، وكانت فرحتنا كبيرة عندما أتمنا الهبوط عن الجبل.

كانت الساعة الحادية عشرة عندما عدنا مجددا إلى سهل صغير على الطرف الآخر للجبل. ويروي هذا السهل نبع ماء تعرف بعين الفشخة. والشاطيء هنا على طول مجرى النبع نام بالقصب وشجر الصفصاف والشجيرات، والقصب فيه كثيف للغاية. ولا بد وأن الكثير من الخنازير البرية تحتمي فيه، وتجذ فيه مأمنا، ويعود ذلك جزئيا لأن هذه المنطقة المنعزلة قلما يزورها الناس، ولصعوبة العثور عليها، وجزئيا لأن البدو لا يأكلون لحم الخنزير، وهم لا يصطادونها. وفي الليل تغادر الخنازير حظائرنا باحثة عن غذائها بين القصب وفي المنطقة الجبلية أيضا.

وقد التقينا مرة أخرى مع مجموعة من بدو عرب حاتم، الذين أمضوا ليلتهم عند عين الفشخة.

لم يقم الإنسان حسب علمي بالتحليل الكيميائي لمياه البحر الميت في أوروبا، لذا حرصت على تعبئة وعاء بمياه البحر، أرسلته إلى جانب ما جمعته من مخطوطات عربية ونباتات وصخور إلى ألمانيا. ويجد المرء هنا الكثير من الملح عند الشاطيء، كذلك أيضا بعض الكبريت الخالص، الذي

جلب لي محمد قطعة منه. وعين الفشخة موجودة على خريطة فلسطين، حيث يظهر مجرى الموقع إلى الشمال من مصعدة. استمتعت هنا برؤية تيس بري لأول مرة، وهو يقفز على أطراف السدود الصخرية الضخمة. وقد لاذ بالفرار بسبب صيحات العرب العالية وبعض طلقات البنادق.

يمكن الاعتقاد من خلال جرف السيول لجذوع الأشجار وأغصان النباتات، بأن الفرق ما بين مستوى ارتفاع سطح البحر وانخفاضه يصل طول قامة الإنسان تقريبا. وفي أحد الأماكن ترامت جذوع الأشجار على مرتفع من الأرض، وحولها نمت بعض النباتات. وهذا دليل بأن الماء المالح لم يصلها منذ سنوات طويلة. أما مرافقي العرب فيعتقدون بأنها منذ أزمنة قديمة. وتبين لي من خلال الفحص القريب بأنها من نفس أنواع النباتات الموجودة في السيل الحالي، ولا يبدو أن عمرها يزيد عن بضع مئات السنين. لهذا فإنني أجد في هذا الدليل على أن مستوى سطح البحر يصل إلى هذا الارتفاع النادر في حالات المطر الاستثنائية والمتواصلة، أو أثناء الشتاء الباردة، وعبر ذوبان الثلوج في المناطق الجبلية المرتفعة.

في الساعة الثانية عشرة غادرنا عين الفشخة، وأخذ السهل في الانفراج رويدا رويدا، وصار البحر يضيق أكثر فأكثر، وبما أن الشاطئ الشرقي في الجهة المقابلة يتسع أيضا في جهة البحر، فقد شكل البحر في نهايته الشمالية لسانا يشبه ذلك اللسان في نهايته الجنوبية. وبعد مسير ساعة، وصلنا إلى طرف البحر، ويقع على مسافة لا بأس بها إلى الشرق منا. كانت الطريق تسير بمحاذاة الجبال، وهي تتجه من الجنوب إلى الشمال بشكل مستقيم تقريبا.

أصبحنا الآن في سهل وادي الأردن الشهير، الذي يسمى الغور، ويطلق عليه هنا اسم غور السيسان، الذي زرت نهايته الشمالية عند طبريا. وأجبرنا العطش في هذا اليوم، أكثر من مرة، على البحث عن الماء في مجاري السيول، وفي أحواض الصخر الصغيرة، مما تراكم من أمطار الليلة الفائتة. وكنا نتجرع شربة الماء، حيث نهبط على ركبنا، ونرتشف الماء مباشرة. كان أحمد قد أكد لنا بأننا سنجد كميات وفيرة من الماء في

هذا الطريق، ولهذا السبب لم نقم بملء قربنا من عين الفشخة. وبالنسبة للماء، على المرء أن لا يثق بتأكيدات البدو، وعليه أن يحرص في كل فرصة تسنح له على ملء قريته، فهؤلاء الناس تعودوا منذ نعومة أظفارهم على الجوع والعطش وكل أشكال العوز، لأنهم غالباً ما يضطرون لذلك نتيجة ظروف حياتهم القاهرة. ويستطيع البدوي المكوث لفترة طويلة دون أن يتناول شيئاً، وهو لا يظن أن بقية الناس ممن لا يقطنون الخيام قادرون على تحمل هذه المشاق بعنت كبير، خاصة عندما يمكن اتقاء ذلك.

في هذه المنطقة تعيش الكثير من الغزلان، وقد قفزت ثلاث منها أمامنا.

عند نهاية البحر تنتهي الجبال الوعرة على هذا الجانب، وتبدأ تلال منخفضة، ذات جوانب منبسطة، تشقها العديد من الوديان الضحلة، وتشكل هذه التلال قمماً ناتئة كثيرة.

وصلنا سريعاً إلى مجرى واد عريض وجاف، ولمحنا في الساعة الثالثة والنصف أطلال موقع في التلال المنخفضة، سماه أحمد خربة ياجون. ولا يظهر في السهل سوى بعض النباتات المتفرقة، وهذه المساحات الشاسعة جرداء تماماً. في الوقت نفسه، أكد لي الناس بأن هذه الأرض تكسوها الأعشاب والنباتات في فصل الربيع، ولكنها سرعان ما تجف بسبب الحر الشديد. وقد علمتني التجارب اللاحقة أيضاً بأن السهل الواقع إلى الجنوب من أريحا وحتى البحر الميت يفقد عموماً إلى الخصوبة، بسبب ملوحة تربته ودرجة الحوامض الكبريتية فيه، إضافة، إلى شح المياه، بما يجعل استعمال هذا السهل قليلاً بالنسبة للمزروعات المألوفة، أو غير مستعمل البتة.

التقينا بمجموعة من رجال أحمد، الذين سبق وأن التقينا بهم في عين الفشخة. ورغم توقعي أنهم منهكو القوى بسبب المسير، فقد باشروا في ممارسة تمارينهم الحربية. ويهرب واحد ليلحق به آخر ببارودته، تتخلل ذلك صيحات وحشية مرعبة، ويهاجمه ثم يهرب مرة أخرى بسرعة. ويركضون بحركات وأوضاع معينة، متقاطعة وعرضية... الخ. إن فن

القتال عندهم مبهراً حقاً، ويمكن أن يثير الرهبة لدى أي إنسان لم يألف ذلك. ووجدت في مناوراتهم بعض التشابه مع مناورات الفرسان الأتراك والعرب، وشاهدت هذه التمثيلية القصيرة باستمتاع.

في الساعة الرابعة إلا عشرين دقيقة عبرنا وادياً صغيراً تقطعه ساقية ماء تتكون من خمسة أفواس. واسم هذا الوادي هو وادي القلط. وهو يمتد بمحاذاة أريحا من الجهة الجنوبية. وفي مجرى الوادي وجدنا القليل من الماء الجاري من أمطار الليلة الفائتة. ورغم أننا كنا على مقربة من أريحا فلم نتنبه لذلك، بسبب كثرة الأشجار الدغلية التي تبدأ هنا، وجزئياً بسبب بدء حلول الظلام. وقبل هذا الوادي بقليل تبدأ المنطقة الخصبة الحقيقية للسهل، ذات الشهرة الكبيرة في الماضي، التي رسم لها المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس لوحة خلاصة.

تظهر الأرض هنا خصوبة عالية جداً، كنتاج للطبيعة، ويلاحظ المرء القليل من النشاط البشري فيها. والأرض مليئة بالأجمات والأشجار، تشكل شجرة الزقوم\* والسدر أغلبها. ويرى الإنسان معظمها على شكل شجيرات كبيرة، يصل حجم بعضها حجم شجرة متوسطة.

وللزقوم كأس منتشر نسبياً وساقه مستقيمة وضامرة، ولون اللحاء رمادي أو بخضرة الزيتون. وجزء طويل من ساقها مشدوخ، تغطيه قشرة بيضاء، بما يكسبها منظراً جميلاً. وشجرة الزقوم مزودة بالكثير من الأشواك، يصل طول بعض هذه الأشواك الحادة الخضراء ما يقرب البوصتين. وهي ذات رأس بني، وتبقى طوال الشتاء. أما الأوراق فخضراء فاتحة وذات شكل بيضاوي، ومنتظمة، وتبدو متماسكة. وبما أن سويقة

---

\* لا تنمو شجرة الزقوم إلا في محيط البحر الميت، ويستخرج زيت الزقوم من قشور الثمر الناضج بعد سحقه وغليه. ويستعمل في علاج المفاصل والجروح، وكان يستخرج ويبياع للسياح كبلسم، وهو يختلف عن البلسان الذي كان يزرع قديماً بالقرب من أريحا، وله استعمالات طبية، كما يدخل زيتُه في طقوس التكريس الدينية. انظر من الارز إلى الزوفا، ص 121-122، مصدر سابق.

الورقة لا تقع في الوسط تماما فهي تميل على طرف دائما. وتوجد ورقتان متقابلتان دائما على ساق واحدة طويلة، وطولها بوصة واحدة فقط، وعرضها لا يتجاوز نصف بوصة. ولم أعثر على زهرة لها، وثمارها موجودة على خط أو خطين طويلين للساق، وهي ذات شكل أسطواني دائري ومتطول، والى حد ما، ذات خمس زوايا، ولها تقريبا منظر حبات الزيتون الكبيرة.

وبما أنني وجدت هذه الشجرة ليس في حالة الخضرة، فإنني غير متيقن من مكانها في النظام النباتي، ومنظرها الخارجي يشي بتشابه شديد مع شجرة الزيتون. ولا يوجد عندي تحفظ في تعريفها بشجرة الزيتون البرية (أوليا هيرشنتيكا) في أريحا، إلى أن تفيدني معلومات أدق حولها. وشجرة السدر دائمة الخضرة وتبقى أوراقها في فصل الشتاء، وهي دائرية متطاولة وملساء، ولها من الأسفل ثلاثة أضلاع، لونها أخضر، ولكن، القسم العلوي أكثر دكنة من القسم السفلي. وهي بحجم عقلة الأصبغ. وسيقانها ذات لون بني، ولكن أغصانها بيضاء وملساء. وهي مسلحة بأعداد هائلة من الأشواك الحادة، زوجا زوجا دائما، واحدة منها مستقيمة أو مائلة قليلا، والأخرى مجنحة. وتكون ثمارها خضراء في البداية، تصير صفراء عند نضجها. وهي بحجم حبات الكرز الصغيرة، وصلبة، وطعمها حامض وتقضب الفم عند الأكل. ويطلق عليها الناس في هذه المنطقة اسم السدر. ويستعملها الفلاحون والبدو عند نضجها كفواكه للأكل جزئيا. أحيانا تطحن على شكل مسحوق وتغمس بالزيت، ومذاقها حامض. وينمو السدر غالبا كشجيرات إلى أن يصل بحجم الشجرة الكبيرة. وتبدو لي هذه النبتة كشجرة (رامنوس زيزيفوس ل.) البرية.

إلى جانب شجرة السدر، وجدت شجرة الظل الليلي المقدسة بكميات كبيرة، وتحمل الأزهار والثمار الناضجة وغير الناضجة في الوقت نفسه، ولا تختلف في شيء عن تلك التي عثرت عليها في عين جدي. بين هذه الأشجار هناك عدة مضارب لعرب حاتم على بعد ربع ساعة تقريبا، وهي متوارية عن الأنظار بحيث يصعب الاستدلال عليها لو أن

أحمد ليس مرشدنا، ولو لم يكشف نباح كلاب البدو عن مكانها. وصلنا إلى سيل صغير يجري من عين السلطان، وهو نبع المعجزات الشهير، الذي تحدث عنه يوسفوس، ومؤشر عليه في خريطة فلسطين باسم نبع أليشا. وماؤه عذب للغاية.

قادنا أحمد إلى مضرب صغير حيث يوجد بيت شعر والده، وقد استقبلونا بحفاوة وأمضينا الليل فيها. وبيوت الشعر في المضرب مقامة حول ساحة دائرية صغيرة، وفي الليل تحشر فيها كافة الحيوانات وممتلكات صاحب بيت الشعر. ومن أجل تأمينها ضد الحيوانات المفترسة أو اللصوص اعتاد الناس هنا على بناء سياج صغير من أغصان السدر، التي تجعل أشواكها الدخول صعبا. وعدا ذلك، يوجد كلب أمام كل بيت شعر، وهي كلاب تتميز بالشراسة وتبقى ساهرة طيلة الليل.

والشيخ ناصر رجل في الستين من عمره. وتشي ملابسه بأنه أكثر من مجرد شيخ عادي، وأنه مرتبط بوشائج مع حياة المدينة. وكان قد تمنطق بمشد أحمر وعصبة رأس بيضاء وثوب قطني أبيض فضفاض، وينتعل حذاءً، وكانت سيقانه عارية. وعندما عرف بأنني إفرنجي أبدى حفاوة كبيرة بي، ودعاني للجلوس بجانبه.. الخ. ومظاهر الحفاوة عند المسلمين عموما عندما يلتقون بواحد من دين آخر ليست مجردة من المصلحة الخاصة. فالشيخ ناصر يرافق جميع الحجاج الذين يأتون إلى أريحا من أجل الغطاس في نهر الأردن وزيارة الأماكن المقدسة الأخرى في المنطقة. وهو يقدر منذ الآن المزايا التي سيجنيها مني مستقبلا. وقد وجدنا ضيوفا عنده، وهم ثلاث فرسان عرب من قبيلة العدوان الكبيرة في أرض البلقا، وقد كانت رماحهم مسندة على طرف خيمة الشيخ.

لم يكن عند الشيخ ناصر قهوة. ولهذا فقد شاركت الجميع من القهوة التي أحملها. وبعد وقت قصير قدمت لنا باطية كبيرة من البرغل المعد بالزبد. ولم نشارك أنا وبطرس في الأكل لأننا ما زلنا على صوم. كذلك كنا قبل ذلك قد رفضنا دعوة الضيافة لذبح خروف على شرفنا للسبب نفسه. ولم يكن الخبز والزيت متوفراً كما أكد لنا الشيخ. وهكذا أمضينا الليل على

الطوى. رغم أنني لا أتحمل هذه الهفوة. وقد أكل الشيخ ناصر ما تبقى بشهية.

وروى أحمد لأبيه عن نجاح مهمته، كما لو أنها تقريبا حملة عسكرية في أوروبا يرويها ضابط لجنراله. قائلاً، لقد كشفونا حينما كنا نعد الخبز في بطن الجبل. ثم استعدوا للهجوم. وحينما لجأنا للهرب قاموا باللحاق بنا، وبعد قليل أمسكوا بنا، وعندما بدأوا في سلبنا، تبينوا أن صديقاً ومعرفة لهم موجود بيننا، ولهذا فقد أعادوا بشكل تلقائي كل الغنائم. ونظرا للطقس الماطر فقد تنازلوا عن الهدف الأصلي للحملة وعادوا معنا. لقد روى ذلك بكل جدية، بحيث يستنتج المرء من ذلك بأن هذه الأحداث تبدو طبيعية تماما لهم.

استمعنا لبضعة ساعات في ذلك المساء لموسيقى الربابة العربية. ويحب العدوان كباقي البدو هذه الموسيقى بشغف، وكبير شيوخهم الشاعر البدوي المشهور نمر له في هذا الفن شهرة كبيرة. وقد عزف اثنان منهم على هذه الآلة، يرافقها الغناء دائما، بحيث يختار الإنسان قصيدة. ولكن الثناء الكبير كان من نصيب ابن الشيخ الذي لا يتجاوز عمرة إحدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة، الذي رافق عزفه غناء صادر عن الروح، يساعده صوته الحسن الرخيم في ذلك. وكان من بين ما غناه قصيدة في مدح أحد شيوخ العدوان، والذي اعتبره الضيوف الثلاثة تكريما كبيرا لهم. ويظهر هذا الصبي الكثير من الروح وحب المعرفة، وتوسمت فيه موارثا عربيا في صباه.

### 18 ديسمبر 1806

رغم أن بطرس وعدني بزيارة نهر الأردن وجبل قرنطل الشهير بالقرب من أريحا، والذي يطلق عليه رهبان القدس لأكوارنتانيا، فقد انار الآن الكثير من المصاعب، لحد أن قمت بتأجيل زيارتي لهذه الأماكن في جولتي القادمة.

في الصباح وعندما كنا على وشك الانطلاق في طريق العودة إلى القدس، تقدم الشيخ ناصر بطلبه الذي كان يداريه بصعوبة. وقال "أنا لي كما

يعرف الجميع" حق على كل الحجاج الذين يأتون هنا، ولا بد وأنكم تدركون الضرورة بأن اطلب منكم الغفر أيضاً. وأجبت هذا الأمر غير معروف بالنسبة لي. وأنت تعرف يا شيخ ناصر بأن الفرنجة لا يدفعون الغفر، وفوق ذلك، فقد تلقى بطرس قدراً من المال لهذه الرحلة، وإذا ما كان راغباً في إعطائكم بعضاً منه فلا مانع لدي، ولكنني لا أرى نفسي ملزماً بذلك". اشتبك بطرس الآن في جدال معه، حيث أنكرك حق الشيخ على الفرنجة. "أتريد ذلك بالقوة" فأبني سأعرف كيف أجركم في القدس"، انك تسكن الآن في منطقتنا. أجاب الشيخ "أنت حر"، إنني أعيش حراً في منطقة القدس، وأنا أعرف طريقة لا تضرنني، ودون أن توجه لي أي تهمه. هنا أصدقائي الثلاثة من العدوان، الذين سيقدمون خدمة لي، سيتبعونكم في الطريق ويسلبوكم. وصاحوا هذا صحيح! هذا صحيح!. ولكن ما العمل الآن؟ يجب التوصل إلى اتفاق مع الشيخ، وانتهت المساومة أخيراً بدفع ثلاثة قروش بدلاً من عشرة قروش.

وبما أن أريحا المدينة المشهورة في الكتب العبرية تبعد مسيرة ربع ساعة فقط عن مضارب الشيخ، فقد أملت في العثور على الكبريت الخالص، الذي يجده الإنسان باتجاه الجنوب. سلكنا الطريق إليها. وهي الآن من أكثر القرى البائسة التي سبق ورأيتهما. ويبدو أن اسم أريحا الحالي مشتق من اسمها القديم. وهي تتكون من دزينة من البيوت المبنية بالحجارة الغشيمة، وبيوتها واطئة وذات هيئة زرية. وحول كل بيت تقريباً ساحة صغيرة، يحيط بها سور بارتفاع ثلاثة أو أربعة أقدام، ومسيجة بأغصان السدر. في الأزمنة القديمة سميت هذه البقعة مدينة النخيل بسبب كميات النخيل الكبيرة التي تنمو فيها. كم تبدلت الصورة! ففي هذه المنطقة كلها لم أشاهد واحدة منها. كما أن البرج المربع الذي يظهره بوشنغ لم يعد موجوداً. والويد وهي نبتة تستخرج منها الأصباغ، ربما لم تزرع هنا أبداً. ولكن النيلة (الانديغيو) يزرعها الناس حتى الآن على الجهة الجنوبية لوادي القلط حيث رأيت نبتة منها، وهي لا تحتاج إلى عناية كبيرة على ما يبدو. ويطلق الناس هنا اسم البذر على نبتة الأصباغ، وهي نفس النوع الذي يزرع بالقرب من

بيسان، لان الإنسان ينتزع بذرها ويرسله إلى مصر. والقليل من الكبريت مثله مثل زيت الزقوم متوفر عند الفلاحين الآن، وتوجب علي أن أتحين فرصة أخرى. والسرو والريحان، وربما يكون الأخير يشبه فستق البان، الموجود حسب تأكيدات يوسيفوس، لا يجده المرء الآن. وما يقصده يوسيفوس بشجرة البلسم العطرية، فلا أعرف عنه شيئاً، إذ لا توجد الآن أية شجرة تسيل منها عصارة البلسم. ذلك أن شجرة الترننتين غير موجودة هنا. وفيما لو توافرت فلن تكون نادرة طبعاً، إذ يجدها الإنسان بكميات كبيرة في جبال القدس والخليل. ولكن تنبت هنا أشجار الاسكلوب الكبيرة أو العشير، التي يحصل الإنسان منها على عصارة حلبيية عند قطعها، وهل يمكن أن يكون هذا الحليب هو البلسم!، أم أنه يقصد زيت الزقوم؟ ولكنه لم يفصح فيما إذا كان البلسم يسيل من الأشجار. وباختصار لا أعلم علم اليقين ماذا يمكن أن يفهم المرء تحت ذلك.

وعدني أحمد بمرافقتي حتى القدس، ولكنه حين علم بأنني أريد أن أسلك طريقاً ملتفة عبر مقام النبي موسى، تقع إلى الجنوب من الطريق المختصرة، فقد أحجم عن الذهاب. وتحتاج الطريق المباشرة من أريحا إلى القدس إلى ست ساعات فقط. كانت الساعة السابعة عندما غادرنا أريحا، وبدأ المطر في النزول. لم يرق لجماعتي اختياري لهذه الطريق الملتفة، وسمعت خليل يطلق علي بعض الألقاب، التي تبين مدى امتعاضه. والتزمت الصمت حيال ذلك. وعلى طول الطريق، كان يشعر بالجوع طالباً مني الخبز، رغم أنه يعرف جيداً بأنه ليس معي خبز. وبمحض الصدفة وجدت معي حبتين من البصل الدمشقي، أعطيته إياها. والآن صاروا مجدداً أصدقائي. قال خليل: لا موسى (سافر سيتزن تحت هذا الاسم) غير حاقد علينا، حقا انه ليس سيئاً، كما أنه الآن رفيقنا.

من أريحا سرنا في البداية باتجاه الجنوب عبر السهل إلى أن وصلنا أقدم الجبال نحو الساعة الثامنة، ثم بدأنا صعود هذه الجبال ذات الانحدار البسيط، والحجارة فيها قليلة، وتخرقها طريق مريحة نسبياً. ولقينا هنا اثنين من العرب غير المسلحين، انطلق إليهم محمد وسألهم بالباح من أين هما قادمان والى أين هما قاصدان، وتمنى لهما سفراً ميموناً.

ومن فوق هذه الجبال رأيت النهاية الشمالية للبحر الميت بشكل دقيق تقريبا، واقتنعت بسهولة، بأن لسان الأرض الضيق، الذي يمتد داخل البحر حسب خريطة فلسطين غير موجود.

في الساعة الثامنة والنصف وصلنا مقام النبي موسى، وهو مزار للمسلمين، ولكنه يزار أيضاً من قبل المسيحيين. ويتكون مقام النبي موسى من مسجد صغير، له منارة صغيرة، ومحاط بسور. والساحة الداخلية لهذا المبنى مبلطة بحجارة المرمر. وقد لاحظ مرافقي العرب بسرور بأنني خلعت حذائي، قبل أن أدخله، رغم أن البلاط كان مبللاً تماماً بسبب المطر. وفي هذا المسجد يجد الإنسان معجزة كبيرة، يمكن أن تجعل علماء اللاهوت والحاخامين الأوروبيين يهزون رؤوسهم عجباً، وهو قبر النبي موسى على وجه التحديد. وكان مجللاً بغطاء من القماش الأخضر. وعند الحماية المعدنية لفتحة الشباك، التي يطل منها الإنسان، علقت أعداد لا تحصى من الخرق حسب التقاليد الإسلامية. وقد قبلناه، وأدى مرافقي الصلاة في المسجد.

ويمكن أن يشكل موقع مقام النبي موسى محل اهتمام لدى علماء الصخور أكبر من اهتمامنا الروحي. وهو يقع على جبل تحيط به الوديان العريضة. وعلى أطرافها يرى الإنسان في كل مكان حجر النبي موسى المشهور. وهو بلا شك الحجر الذي وصفه بوشنغ في كتابه (وصف الأرض، آسيا ص 404). وهو حجر أسود قابل للاحتراق، كنوع الصخور التي يجدها الإنسان في بعض الأماكن في الجبال الألمانية. وإذا ما تم كسر هذا الحجر أو الضرب عليه تنبعث منه رائحة كريهة، وهو قابل للاشتعال إلى حد ما. ويشكل على طول الطريق مسطحات صخرية عارية. وقد استخدمه الناس في القدس في بناء كنيسة القيامة. ويجهز للتبليط، بحيث يكتسب لمعانا معينا، ويكون جزءاً من بلاط الكنيسة. ورغم تأكيد بوشنغ حول خطورة هذا البلاط، فيمكن أن يطمئن الناس بسهولة، عندما يعرفون، كم هي قليلة قابلية اشتعال هذا الحجر.

ويقع مقام النبي موسى على نحو معين في البرية، والجبال المحيطة به تقطنها منذ فترة طويلة قبيلة حاتم، الذين قابلنا كثيرا منهم في رحلتنا، وهم يربون الجمال والضأن والماعز. وفي هذه المنطقة العزلاء التقينا بدرويش مسلم من أطراف الهند، ومنه يتبين المرء الشهرة الكبيرة لهذا المزار في البلاد البعيدة. ويقوم مثل هذا الزائر هنا ما بين خمس إلى ست سنوات تقريبا، إلى أن يحل محله درويش هندي آخر. ويكن البدو لهؤلاء الدراويش الاحترام الكبير، ويقدمون إليهم شتى أنواع الأغذية التي يمتلكونها.

في اتجاه الجنوب، على بعد بضعة ساعات من هذا المكان يقع دير مار سابا الشهير للروم الأرثوذكس، الذي هو محل شهرة كبيرة لدى المسيحيين اليونان، وزيارته ليست متيسرة لهذه الجماعة، ورغم أنه في منطقة جبلية مرتفعة، فهو يقع خلف الجبال القريبة، ولم تتسن لي رؤيته. بعد إقامة قصيرة، غادرنا مقام النبي موسى. وفي الساعة العاشرة والنصف مررنا بالقرب من أحد مضارب قبيلة حاتم. وبعد عشرين دقيقة توقفنا من أجل إشعال النار وعمل الخبز، وكنا قبل ذلك، قد أعددنا العجين، ربما على سطح صخرة أو على الجلد، بالقرب من حفرة تجمع فيها المطر. والجبال التي قطعناها تتخللها أعداد لا تحصى من الأخاديد القاحلة، ويمكن مقارنتها مع الجبال المحيطة بالقدس. وصخورها وحجارتها أقل بكثير. وسطحها يتكون غالبا من نوع من الطفل الجيري أو الرمل الخشن. وهنا عثرت على حفنة جميلة من حجارة الصوان. ورغم توقع المرء أنها أكثر خصوبة من جبال فلسطين الداخلية، فإن الحال ليست كذلك، لأنها كما رآها يوسفوس غير مسكونة سكنا ثابتا منذ آلاف السنين.

في الساعة الحادية عشرة والنصف واصلنا المسير، ورغم أن الطريق تقطع الجبال والوديان فقد كانت جيدة ومريحة، لأن الإنسان صنع أدراجا من الحجر في المناطق الوعرة والمعلقة، وقام بتسوية المناطق المرتفعة منها. ويشكل هذا خدمة عظيمة للحجاج الذين يزورون مقام النبي موسى.

وقام بعض الصبية من البدو بشتما لأنهم اعتقدوا بأننا حجاج عاديين. وعلى الطريق انتشرت أشجار السدر التي طالما رحبنا بثمارها الحامضة. بعد ذلك، مررنا بالقرب من خرائب الخان الأحمر. وفي الساعة الواحدة والنصف وصلنا خان الحوط، وهو بناء صغير، والى جانبه يوجد نبع عذب، ولكنه شحيح السيلان. وبعد ربع ساعة، عبرنا قرية العيزرية الصغيرة، وهي تقع على سفح جبل، وتقع بيوتها بين الأنقاض جزئياً. والى جانبها يوجد واد صغير جميل، جوانبه مزروعة بأشجار التين والزيتون. وهنا تساقط المطر مرة أخرى، وامتد لفترة في هذا اليوم.

ومن هنا سرنا فوق قرية سلوان بجانب طنطور فرعون ومنه إلى بوابة النبي داود، ثم دلفنا داخل مدينة القدس. وتقع على بعد نصف ساعة من العيزرية. وذهب خليل خارج المدينة إلى بدوي من معارفه. ورافقني محمد مع بطرس إلى الدير.

وحين كان الأول معي، رجاني أن أعطيه خمرا، وقد أكد بأن العديد من البدو يحتسونها خفية. ولكن الخمر أصبح مخالفا لعقيده، ولا يريد أن يشربه، عندما لم يكن الخمر متوفرا. ورفض تناول السمك الذي قدمته له، لأن البدو ذوو موقف صارم ضده.

كنت في غاية السرور بالتعرف على جزء لا بأس به من البحر الميت ومحيطه، وأن أدون ملاحظاتي حول هذا البحر العجيب.

